الباب الأول

مفهوم علم الأخلاق

الفصل الأول: علم الأخلاق

(تعريفه - فائدته - موضوعه - الحاجة إليه).

الفصل الثاني: مفهوم علم الأخلاق الإسلامية.

الفصل الثالث: تقويم الأخلاق.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

علم الأخلاق

(تعريفه - فائدته - موضوعه - الحاجة إليه)

عندما نريد أن نعرِّف الأخلاق ونحدد مفهومها، فإننا نحكم على العمل بأنه خير أو شر حق أو باطل، صواب أو خطأ، نافع أو ضار.

وهذا الحكم متداول بين الناس جميعًا، لا فرق بين عالم وجاهل، طفل أو هرم. إذن فما معنى الأخلاق؟

(أ) تعريف الخُلق عند فلاسفة الإسلام:

لقد عرف العلماء والباحثون هذا العلم (الأخلاق) بتعريفات عديدة نذكر منها ما يلى:

١ - عرف الجرجانى الخلق بأنه: «عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية» [١].

فالإنسان مركب من جسد ونفس، وكما أن للجسم هيئته الظاهرة التى توصف بالحسن أو القبح تبعًا لهيئة الجسد، كذلك للنفس هيئتها الداخلية التى توصف أيضًا بالحسن أو القبح تبعًا لما تتصف به من أخلاق.

ومن هنا يقال فلان حسن الخَلْق والخُلُق فالخَلْق صورة الجسم الظاهرة والخُلُق صورة النفس الباطنة، فالذى يوصف بالحسن والقبح هى الهيئة على حسب ما يصدر عنها من فعل.

٢ - أما الإمام الغزالى فقد عرف الخُلُق بأنه «عبارة عن هيئة فى النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر فإن كانت الهيئة بحيث يصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقًا حسنًا وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقًا سيئًا» [٢].

إذن: فالخلق منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم والإسلام يدعو إلى ما هو محمود الأخلاق وينهى عن مذمومها.

---

(١) التعريفات للجرجانى، دار الكتب اللبنانية، بيروت.

(٢) الإمام الغزالى - إحياء علوم الدين. جـ ٣، ص ٥٢ دار المنار. القاهرة.

فالخلق المحمود: صفة ثابتة فى النفس فطرية أو مكتسبة، تدفع إلى سلوك إرادى محمود عند العقلاء، كالأخذ بالحق أو الخير أو الجمال وإن خالف الهوى. وترك الباطل والشر والقبح وإن وافق الهوى أو الشهوة، ويمكن تمييز الأخلاق الحميدة عن غيرها بأنها كل سلوك فردى أو جماعى تجمع النفوس البشرية على استحسانه مهما اختلفت أديانها ومذاهبها وعاداتها وتقاليدها ومفاهيمها، ويلحق به ما كان أثراً من آثاره، أو فرعا من فروعه.

والخلق المذموم: صفة ثابتة فى النفس فطرية أو مكتسبة تدفع إلى سلوك إرادى مذموم عند العقلاء كالأخذ بالباطل أو الشر أو القبح، وترك الحق أو الخير أو الجمال، اتباعًا للهوى أو الشهوة، ويمكن تمييز الأخلاق الذميمة عن غيرها بأنها كل سلوك فردى أو جماعى تجمع النفوس البشرية على استقباحه واستنكاره مهما اختلفت أديانها ومذاهبها وعاداتها وتقاليدها ومفاهيمها، ويلحق به ما كان أثرا من آثاره، أو فرعًا من فروعه [1].

ويقتضينا البحث أن نميز الأخلاق عن غيرها من الصفات الإنسانية فليست كل الصفات المستقرة فى النفس من قبيل الأخلاق، بل منها غرائز ودوافع لا صلة لها بالأخلاق، ولكن الذى يفصل الأخلاق ويميزها عن غيرها من الغرائز: أن الأخلاق آثارها فى السلوك قابلة للحمد أو الذم، أما الغريزة المعتدلة فليست مما يحمد الإنسان أو يذم عليه.

فالأكل عند الجوع بدافع الغريزة ليس مما يحمد أو يذم فى باب السلوك الأخلاقى، لكن الشره الزائد عن حاجة الغريزة العضوية أمر مذموم، لأنه أثر لخلق فى النفس مذموم، هو الطمع المفرط، وعكس ذلك أثر لخلق فى النفس محمود، هو القناعة.

والحذر من وقوع مكروه أثر من آثار غريزة حب البقاء، وليس محلا للمدح أو الذم، فى باب السلوك الأخلاقى، لكن الخوف الزائد عن حاجات هذه الغريزة أثر لخلق فى النفس مذموم، هو الجبن أما الإقدام الذى لا يصل إلى حد التهور فهو أثر لخلق فى النفس محمود هو الشجاعة.

وهكذا سائر الغرائز والدوافع النفسية التى لا تدخل فى باب الأخلاق، ويمكن أن يقال باختصار: إن علم الأخلاق يدرس السلوك الإنسانى من حيث الدوافع والبواعث والغايات، ووسائل الإلزام والالتزام الخلقى، والواجب والضمير [2].

(ب) فائدة علم الأخلاق:

من الحقائق المعروفة والمسلم بها أن كل علم يفيدنا فى الميادين التى يبحث فيها هذا العلم ويمدنا بالنظريات والقواعد التى تحصل المعرفة فى كل نواحيه واضحة متكاملة تبصرنا بأصوله وفروعه.

---

(١) عبد الرحمن حسن حنبكة الأخلاق الإسلامية وأسسها ج١ ص ١١ دار القلم دمشق.

(٢) المصدر السابق.

لكن كثيرًا ما يرد على الذهن هذا السؤال.

هل فى استطاعة علم الأخلاق أن يجعلنا صالحين أخيارا؟

والجـواب أن هذا العلـم ليس فى اسـتطاعته أن يجعل كل الناس أخيـارا بل هو بمنزلة الطبيب، فالطبيب يسـتطيع أن يخبر المريض بضرر شـرب المسكرات ويصف له تأثيرها على العقل والجسم، ثم المريض بعد ذلك بالخيار إن شاء تركها لتحسين صحته وإن شاء تعاطاها، وليس فى اسـتطاعة الطبيب منعه، كذلك علم الأخلاق ليس فى مقدوره أن يجعل كل إنسـان صالحًا، ولكن يفتح عينيه ليريه الخير والشـر وآثارهمـا، فهو لا يفيدنا ما لم تكن لنا إرادة تنفذ أوامره وتجنبنا نواهيه [1].

فهـذا العلم (علم الأخلاق) ليس قاصـرًا على معرفة النظريات والقواعـد، بل من أهدافه التأثير فى إرادتنا وهدايتها، وحملنا على أن نشـكل حياتنا ونصيغ أعمالنا حتى نحقق المثل الأعلـى ونحصل خيرنا وكمالنا، فهو يشـجع الإرادة على عمل الخير. فهو باختصار يزودنا بالمعرفة، والمعرفة غير كافية وحدها، بل هى بحاجة إلى إرادة حرة واختيار واثق.

إذن علـم الأخـلاق يعمل – متى كان الإنسـان مهيئًا للخير – على إسـعاد المرء فى الدنيا والآخـرة وذلك بتطهـير القلوب، وتهذيب النفـوس، وتنبيه الضمائر، وإصلاح السـرائر، وتوجيه قوى الإنسان لخير نفسه وخير بلده.

فإذا طهرت القلوب سـلمت من الغش والخديعة والوقيعة. وإذا هذبت النفوس تعالت عن الدنايا وعفت عن الشـهوات. وإذا أوقظ الضمـير كان رقيبًا على النفس فلا يمكنها من خيانة ولا يقربها من إثم.

فإذا تم للمرء ذلك كله عاش سعيدًا راضيًا مثلج القلب منشرح الصدر موفور السعادة.

ولا شك أن للإنسان سعادات أبيحت له، وهى النعم المشار إليها فى قوله تعالى:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [2].

إلا أن هذه السـعادات تفنى وتنتهى وسـرعان ما يشـبع منها الإنسـان ولا تحقق رغباته لكن.. لماذا؟

والجـواب أن السـعادة الحقيقية ينبغـى أن تدوم ولا تزول وهى السـعادة الأخروية ومن هنا كان لا بد أن تكون السـعادة الدنيوية – من خلال النعم – وسـيلة إلى السعادة الأخروية،

(١) انظر علم الأخلاق / أحمد أمين دار الكتاب العربى بيروت.

(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٤ والنحل الآية ١٨.

وإلا كانت ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ (١) فالسعادة الحقيقية فى الدنيا تكون بالإيمان بإله واحد خالق مدبر لأقدار عباده، منه النفع والضر، وبيده الحياة والموت والرزق، وبالخضوع لقضائه وقدره، وحكمه وشرعه، وباليقين بأنه المرجع والمنتهى إليه. فإذا ما حقق الإنسان رغباته الدنيوية من خلال أمر الله ونهيه. وحكمه وشرعه كان هو السعيد – بحق – فى الدنيا ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ (٢).

وأيضا كان هو السعيد فى الآخرة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (٣) وإذا ما علم الإنسان أن مرجعه ومنتهاه إلى ربه فتكون غايته القصوى إرضاء ربه والسير على منهجه ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (٤) ومن هنا نصل إلى غاية الأخلاق الإسلامية وهى (إسعاد المرء فى الدنيا والآخرة).

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا متى تتحقق الغاية من علم الأخلاق؟

والجواب إذا كانت أخلاق الإنسان قابلة للتغيير:

وهذه المسألة اختلفت فيها آراء المفكرين بين مؤيد ومعارض وليس هنا مجال لسرد الخلافات لكن نكتفى بذكر الرأى المؤيد لقبول أخلاق الإنسان للتغيير – أى إلى الأصلح والأحسن – والسبيل إلى تغييرها هو العلم لأن العلم عندهم الفضيلة، والجهل هو الرذيلة.

ومن أنصار هذا الرأى الإمام الغزالى فهو يرى أن تغيير الخُلُق ممكن، ولو لم يكن ممكنًا لما قال النبى ﷺ حسنوا أخلاقكم، فذلك دليل على إمكان تغيير الخلق، وإلا لما أمر النبى ﷺ به، ولو امتنع ذلك لبطلت الوصايا والمواعظ والترغيب والترهيب.

وسوف يأتى توضيح هذه المسألة فى فصل تقويم الأخلاق إن شاء الله.

(جـ) موضوع علم الأخلاق:

موضوع كل علم من العلوم يبحث فيه عن عوارضه الذاتية كبدن الإنسان بالنسبة لعلم الطبيب، فإنه يبحث فيه عن أحواله من حيث الصحة والمرض، وكالكلمات بالنسبة لأستاذ علم النحو فإنه يبحث فيه عن أحوالها من حيث الإعراب والبناء..

إذن فما موضوع علم الأخلاق؟

---

(١) سورة النور ٣٩.

(٢) سورة الحج الآية ٤١.

(٣) سورة النحل الآية ٣٠.

(٤) سورة طه الآية ١٢٣.

إن وظيفة علم الأخلاق الأساسية هى البحث فى الأعمال التى يقوم بها الناس فيحكم عليها بالخير أو الشر، بأن تقول هذه الأعمال خيرة أو شريرة، لكن ليست كل الأعمال صالحة لأن يحكم عليها بهذا الحكم.

ولبيان ذلك نقول: إن أفعال الإنسان منها ما هو:

- إرادى - غير إرادى - شبه إرادى

١ - الأفعال الإرادية:

وهى الأفعال التى تصدر عن الإنسان بعد تفكير وروية ورغبة فى أدائها وذلك كمن يقوم بتقديم صدقة لأحد الفقراء أو كمن يعتزم سرقة شخص وأعد العدة لذلك، وكمن يعزم على قتل عدوه ثم ينفذ ما عزم عليه، فهذه الأفعال ونحوها تسمى أفعالا إرادية لأنه فعلها بمحض اختياره، وهى التى يحكم عليها بأنها خير أو شر، ويحاسب الإنسان على ما أتاه منها، وبالتالى فهى موضوع علم الأخلاق.

٢ - الأفعال غير الإرادية:

وهى الأفعال التى ليس للإنسان دخل فيها وإنما تصدر منه لا إراديًا مثل حركة الأمعاء وضربات القلب والتنفس ورمش العين.. فهذه الأفعال ونحوها لا يحكم عليها بخير أو شر، كما لا يحكم على فاعلها بأنه خيِّر أو شرير، ولا يحاسب الإنسان عليها لأنها فعلت لا إراديا وبالتالى فهى ليست موضوع علم الأخلاق.

٣ - الأفعال شبه الإرادية:

وهى تلحق بالإفعال الإرادية، وإن كانت إرادتك لم تتعلق بها إلا إنك كنت تستطيع معها الأخذ بالحيطة وأسباب السلامة وإليك بعض الأمثلة:

١ - حفرت حفرة فى طريق عام ونسيت أن تميزها بما يدل على وجود خطر فيها، فجاءت سيارة أو جاء إنسان فارتطم فى هذه الحفرة فجرح أو مات فأنت مسئول لكن لماذا؟

لأنك كنت تستطيع الحيطة فترفع عليها شارة حمراء أو ما يدل على وجود خطر فيها.

٢ - رأيت إنسانا أعمى يقود نفسه سيقع فى خطر أمامه فقمت مسرعًا لتنقذه فعثرت فى شىء فى طريقك، فأتلفته فأنت كذلك مسئول.

٣ - من الناس من يأتى أفعالا وهو نائم تتسم هذه الأفعال بالشر مثل إشعال نار قد تؤدى إلى احتراق المنزل .. فإنه يسأل ويحاسب إذا كان يعلم أنه مصاب بهذا المرض، وأنه يأتى

أفعـالا خطرة وهو نائم، ثم لم يحتط وقت يقظته لما قد يحدث منه عند نومه، بأن يحول بين نفسه والنار وأدواتها.

إذن فنحـن مسـئولون خُلقيًا عن عـدم الاحتياط للأوقات التى نكون فيها غير مسـئولين، وكذلـك من اضطره الجوع إلى السـرقة أو القتل فهو مسـئول عن عمله خلقيًـا لأنه ليس فاقد الشعور ولا العقل وهو يعلم ما هو مقدم عليه وقد تردد بين تحمل ألم الجوع وارتكاب جريمة السرقة أو القتل فاختار الثانى وأراد فعله.

وخلاصة هذا:

أن موضوع علم الأخلاق هو أفعال الإنسان الاختيارية، وهى الأفعال التى تصدر عن الإنسان عن فكر وروية، ويعلم صاحبها بها وقت صدورها، نحكم عليها بالخير أو الشر، النفع أو الضر، وكذلك الأفعال شبه الإرادية والتى كان يمكن الحيطة والحذر لها وقت الانتباه والاختيار.

أما ما يصدر عن غير فكر وروية ولا إرادة وشعور، ولا يمكن الاحتياط له فليس من موضوع علم الأخلاق [1].

(د) الحاجة إلى الأخلاق:

الأخلاق الحسـنة ضرورة فردية واجتماعية، أى ضرورة إنسـانية ملحة، ذلك أن الإنسان هـذا المخلوق الذى كرمـه الله، ونفخ فيه من روحه، وأسـجد له ملائكته ومـن عليه بنعمة العقل والإدراك تتنازعه الرغبات والشـهوات .. التى من الممكن أن تهبط به إلى أسفل سافلين ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [2] وفيـه إلى جانب ذلك ميل إلى التسامى والارتقاء النفسى والعقلى والروحى بحيث يدرك مرتبة الملائكة المطهرين.

وتدعوه غرائزه ودوافعه الدنيا إلى التدنى والتسـفل والانحطاط.. وتدعوه تطلعاته وأشواقه العليا إلى السمو والرفعة والتفوق، إذن فلابد من تربية خلقية رشيدة سديدة تمكن الإنسان من التغلب على دواعى الهبوط والتسـفل، وتقوى فيه نزعات الخير والصواب. هذا على مسـتوى الفرد. أما على مسـتوى المجتمع، فلابد للإنسـان من الجماعة، لأن الإنسـان مدنى بالطبع والحاجة، بمعنى أن حاجته إلى غيره من أفراد الجماعة حاجة ضرورية إنسـانية، وللنزعة الفرديـة متطلبـات، وللمجتمع حقوق وواجبات، وهذا يفرض عليه أن يتنازل عن شـىء من أثرته وأنانيته كى يتم التوازن بين نزعات الإنسان الفرد ومصلحة المجتمع الأساسية [3] ومن

(١) الأخلاق الإسلامية وأثرها فى سلوك الفرد والأمة إنشاد محمد على «بتصرف» مطبعة ج، الأزهر القاهرة.

(٢) سورة يوسف الآية ٥٣.

(٣) انظر الفكر الأخلاقي د. محمد عبد الله الشرقاوى دار الجيل بيروت.

أجل كل ذلك أعطى الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم هذه الأهمية العظمى للأخلاق الحميدة، فجعلها الهدف والغاية من الرسالة الإسلامية فقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

[رواه أحمد] .

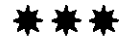

obeikandl.com

الفصل الثانى

مفهوم علم الأخلاق الإسلامية

عرف بعض الباحثين الأخلاق فى نظر الإسلام بأنها عبارة عن «مجموعة القواعد المنظمة للسلوك الإنسانى التى يحددها الوحى لتنظيم حياة الإنسان» ، وتحديد علاقته بغيره على نحو تحقيق الغاية من وجوده فى هذا العالم على أكمل وجه» [1].

فمفهوم علم الأخلاق الإسلامية – إذن هو علم الخير والشر، والحسن والقبح، وهو واحد من العلوم الإسلامية التى تقوم مصادرها الأساسية على القرآن والسنة، إذ جاءت كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تبين أين الخير والشر، وأين الحسن والقبيح، وتعرفها أحيانا بالمعروف وأخرى بالمنكر، وأحيانا بالنفع وأخرى بالضر.

ومما ينبغى ملاحظته أن النظام الأخلاقى ليس جزءًا من نظام الإسلام العام، بل إن الأخلاق هى جوهر الإسلام وروحه السارية فى جميع جوانبه، ومصداق ذلك قول الرسول ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» [رواه أحمد] . وكانت عائشة رضى الله عنها تفهم هذا المعنى من الدين الإسلامى، ولهذا فهى عندما سئلت عن أخلاق النبى ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»[رواه مسلم] .

وأخلاقية الإيمان تتضح من ناحيتين:

الناحية الأولى: باعتباره عملا ذلك أن الأعمال إما داخلية وإما ظاهرية، والإيمان من النوع الأول، ولهذا فقد نص الرسول – ﷺ – نفسه على أن الإيمان عمل فقال عندما سأله أبو ذر – رضى الله عنه – أى الأعمال أفضل؟ قال «الإيمان بالله والجهاد فى سبيل الله» [رواه الشيخان] ، لأنه عمل إيجابى من أعمال القلب.

وفى القرآن الكريم الذى هو دستور الأخلاق للبشرية عامة وللمسلمين خاصة جاءت آيات كثيرة اقترن فيها الإيمان بالعمل، من ذلك قوله تعالى:

– ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ ..... ﴾ [2].

(١) بتصرف، علم الأخلاق الإسلامية، مقداد بالجن – دار عالم الكتب – الرياض.

(٢) سورة يونس الآية ٩.

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ (١).

- ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ... ﴾ (٢).

الناحيـة الثانية: أن الإيمان فى حقيقته عمل القلـب، وهو الاعتراف بالحقيقة الإلهية والاعتراف بالحقيقة فضيلة، وعدم الاعتراف بها مكابرة، وذلك خروج عن الخلق الحسن.

ولهذا نجد الاتجاه الأخلاقى سائدًا فى جميع العبادات والمعاملات فمثلاً جاء فى:

- **قضـاء الحاجـة بعيداً عن الطرقات:** عن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسـول الله ﷺ: «واتقوا الملاعن الثلاث: البراز فى الموارد وقارعة الطريق والظل. [رواه أبو داود والحاكم].

- **وفى الطهارة «الوضوء»:** روى مسـلم عن عثمان بن عفان ﷺ قال رسـول الله ﷺ: « من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظافره» [رواه مسلم].

- **وفى الصلاة:** يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ (٣).

- **وفى الصوم:** بين الرسول ﷺ أن من لم يتخلق لا يقبل الله منه الصوم فقال «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه» [رواه البخارى].

- **وفى الحـج:** فقال تعـالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (٤).

- **وفى الزكاة:** ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (٥).

- **وفى المعاملات مع الآخرين:** روى عن ابن عمر ﷺ أن رسـول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسـلم لا يظلمه ولا يسـلمه، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن سـتر مسـلما سـتره الله يوم القيامة، ومن مشـى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزول الأقدام» [رواه الشيخان].

---

(١) سورة الكهف الآية ١٠٧.
(٢) سورة العصر الآية ١ – ٣.
(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٥.
(٤) سورة البقرة الآية ١٩٧.
(٥) سورة التوبة الآية ١٠٣.

الفصل الثالث

تقويم الأخلاق

-١-

مقدمة عامة

إن عناية الإسلام موجهة - بالدرجة الأولى - إلى تزكية النفس وتهذيبها أى تطهيرها من نزعات الشر والإثم وإزاحة حظ الشيطان منها، وتنمية فطرة الخير فيها، وتهذيب طباعها تهذيبًا مصلحًا ومقومًا، وبتهذيب طباع النفس يتهيأ المناخ النفسى الصالح لتفجير منابع الخير، وطبيعى أنه متى تزكت النفس وتهذبت طباعها استقام السلوك الداخلى والخارجى لا محالة.

يضاف إلى ذلك أن السلوك الظاهر قد لا يكون معبرًا تعبيرًا صادقًا عن أحوال النفس الداخلية. لذلك كان نظر الله تبارك وتعالى فى مراقبته لأعمال عباده موجهًا لما فى قلوبهم ونفوسهم.

روى الإمام مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

وأشار الرسول ﷺ إلى أن القلب هو مكان التقوى، وبين القرآن أن من زكى نفسه فقد أفلح، وأن من دسى نفسه - أى غمسها فى أدناس الكفر والمعصية - فقد خاب، فربط الفلاح بتزكية النفس بالإيمان والتقوى، وربط الخيبة بتدنيس النفس بالكفر والعصيان.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ (١).

وحينما يكون العمل تعبيرًا صادقا عما فى النفس يكون ممارسة صادقة من ممارسات تزكية النفس، قال تعالى فى سورة الليل: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ (٢).

وقد يكون صدق العمل فى بعض الطاعات سببًا فى تزكية النفس وتطهيرها من ممارسات أخرى فيها دنس، ولذلك جعل الله من وسائل مداواة الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا

(١) سورة الشمس الآية ٧ - ١٠.

(٢) سورة الليل الآية ١٤ - ١٨.

واعترفوا بذنوبهم، أخذ قسط من أموالهم على سبيل الصدقة لتطهيرهم وتزكيتهم. قال الله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ..... ﴾ (١).

وللتربية أثر عظيم فى تزكية النفس، ولذلك كان من مهمات الرسول التربوية تزكية نفوس أصحابه قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢)

-٢-

الأخلاق فطرية أو مكتسبة

الأخلاق قد تكون فطرية وقد تكون مكتسبة

فالأخلاق الفطرية: هى عبارة عن الكرامة الطبيعية التى أعطاها الله للإنسان منذ أن خلقه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ (٣).

والأخلاق المكتسبة: هى التى يكتسبها الإنسان عن طريق ممارسته للفضيلة، مثل الإحسان إلى الناس والتعلم: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٤). بمعنى أن بعض أخلاق الناس أخلاق فطرية تظهر فيهم منذ أول حياتهم، ومنذ بداية نشأتهم، وبعض الناس أخلاقهم مكتسبة من البيئة الطبيعية أو من البيئة الاجتماعية، أو من توالى الخبرات ونحو ذلك.

والأخلاق الفطرية قابلة للتنمية والتوجيه والتعديل، وتشهد لهذه القابلية التجارب التربوية على الإنسان والملاحظات المتكررة على أفراد الناس من مختلف البيئات الإنسانية.

وحظوظ الناس من هذه الطباع متفاوتة، هذه حقيقة يلحظها كل من يتعامل مع الناس وتكاد تكون من البديهيات، فالناس كما تتفاوت حظوظهم من الذكاء الفطرى تتفاوت أيضا حظوظهم الجسدية، قوة وضعفا، وطولاً وقصرًا، وبدانة ونحولاً، وصحة وسقمًا، وجمالاً وقبحًا.. إلخ.

كذلك فإن حظوظهم من الطبائع النفسية الخلقية وغير الخلقية حظوظ متفاوتة بالفطرة.

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٢ – ١٠٣.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٦٤.

(٣) سورة الإسراء الآية ٧٠.

(٤) سورة المجادلة الآية ١١.

إننا نجد – مثلاً – الخوف الفطرى عند بعض الناس أشد منه عند فريق آخر، ونجد الطمع الفطرى عند بعض الناس أشد منه عند فريق آخر، ونجد فريقًا من الناس مفطورًا على سرعة الغضب والتهور بينما نجد أناسا آخرين على نسبة من الحلم والصبر وبطء الغضب .. وهكذا.

هذا التفاوت نلاحظه حتى فى الأطفال الصغار الذين لم تؤثر البيئة فى تكوينهم النفسى بعد، وقد جاء فى أحاديث الرسول ﷺ ما يثبت هذا التفاوت الفطرى فى الطباع الخلقية وغيرها منها قول الرسول ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا» ومنها ما رواه الترمذى أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن، والخبيث والطيب وبين ذلك» .

-٣-

هل الأخلاق قابلة للتغيير؟

رأى الغزالى فى إمكان تغيير الخلق:

قال الغزالى: يزعم بعض الناس أن الأخلاق لا يتصور تغييرها ويستدلون بأمرين: أولهما أن الخُلُق صورة الباطن، كما أن الخلق صورة الظاهر، وإذ إن الخلقة الظاهرة لا يمكن تغييرها كالدميم لا يمكن أن يكون جميلاً والقبيح لا يمكن أن يكون حسنًا، والقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلاً.

وثانيهما: أنهم ضربوا مثلا فقالوا: إن حسن الخُلُق فى قمع الغضب والشهوة، وقد شاهدنا من جاهد طوال عمره فى قمعهما، فأبت عليه فطرته ومزاجه إلا بقاءهما.

فاشتغاله به تضييع زمان من غير فائدة.

ثم يقول الغزالى: ونحن نرى أن هذه مغالطة وإنكار للوقائع، فلو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، ولما قال رسول الله ﷺ: «حسنوا أخلاقكم» وكيف ينكر هذا فى حق الآدمى وتغيير خلق البهيمة ممكن؟

إذ ينقل البازى[1] من الاستيحاش إلى الإنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب وإمساك الصيد، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكل ذلك تغيير للأخلاق.

(١) الباز نوع من الصقور الجارحة يستخدم فى الصيد.

ثم يقول: بيد أن الجبلّات مختلفة، بعضها سريعة القبول، وبعضها بطيئة ولاختلافها سببان:

أحدهما: قوة الغريزة فى أصل الجبلّة فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر مجبول عليها الإنسان.

ثانيهما: أن الخلق يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه، وباعتقاد كونه حسنًا مرضيًا.

كل مولود يولد على الفطرة: ورأينا أن كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه أى بالتعود والألفة قد تكتسب الرذائل، وكما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم.

ويقول الغزالى أيضا: والرذيلة التى هى مرض القلب علاجها بضدها فيعالج مرض الجهل بالتعليم ومرض البخل بالسخاء، ومرض الكبر بالتواضع..... إلخ.

وكما أنه لابد من احتمال مرارة الدواء وشدة الصبر لعلاج الأبدان المريضة، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب، بل أولى. فإن مرض البدن يخلص منه بالموت، ومرض القلب – والعياذ بالله تعالى – يدوم بعد الموت أبد الآباد.

والغرض من ذلك التنبيه على أن الطريق السليم فى ذلك هو سلوك المسلك المضاد لكل ما تهواه النفس وتميل إليه، وقد جمع الله ذلك فى كتابه العزيز فى كلمة واحدة، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [1].

أ. هـ، ملخصًا من الإحياء للغزالى [2].

مراتب الناس فى قبول التأديب

قال صاحب سلوك المالك وهو شهاب الدين بن أحمد بن أبى الربيع:

«أما مراتب الناس فى قبول هذا الأدب الذى سميناه خلقًا فإنها كثيرة، وهى تشاهد وتعاين فيهم وبخاصة الأطفال، فإن أخلاقهم تظهر فيهم منذ نشأتهم ولا يسترونها بروية ولا فكر، كما يفعل الرجل التام الذى انتهى فى نشأته وكماله إلى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه فيخفيه، بضروب من الحيل، والأفعال المضادة لما فى طبعه.

وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان، واستعدادهم لقبول الأدب، ونفورهم منه، وما يظهر فى بعضهم من القبح وفى بعضهم من الحياء، وكذلك ما يرى فيهم من الجود والبخل والرحمة

(١) سورة النازعات الآية ٤٠ – ٤١.

(٢) انظر إحياء علوم الدين للغزالى جـ ٣، صـ ٨٩ – ٩١.

والقسوة والحسد، وضد هذا مما نعرف به مراتب الإنسان فى قبول الأخلاق الفاضلة، ونعلم منه أنهم ليسوا على مرتبة واحدة، وأن فيهم الصعب الممتنع، والسهل السلس، والفظ الغليظ والعسر، والخيِّر والشرير.. إلخ» .

خلاصة آراء المتقدمين:

يستخلص مما نقلناه عن شهاب الدين صاحب سلوك الممالك وعن الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين أنهما يجنحان إلى أنه:

١ – إذا أهملت الطباع ولم تُرَضْ [١] بالتأديب والتقويم نشأ كل إنسان على سوء طباعه وبقى عمره كله على الحالة التى كان عليها فى الطفولة وتبع ما وافقه الطبع من غضب أو شره أو غيرهما ويؤكد هذا المعنى الإمام الغزالى فى الإحياء فيقول: لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال الرسول ﷺ: «حسنوا أخلاقكم» .

ويؤيد هذا المعنى أيضًا أى قبول الأخلاق للتغيير (ابن مسكويه) فيقول: والحق أن الإنسان يولد مطبوعًا على قبول الخلق، إذ نراه ينتقل بالتأديب والمواعظ إما سريعًا وإما بطيئًا لأن القول بعدم قبول الخلق [أى للتغير] يؤدى إلى إبطال قوتى التميز والعقل، وإلى رفض السياسات كلها، وترك الناس جميعا مهملين وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يكونون عليه بغير سياسة ولا تعليم وهذا ظاهر الشناعة [٢].

٢ – أن الإنسان قابل للخير والشر معًا وهذا هو الرأى الصواب ولا حاجة معه إلى إقامة البرهان، فالوجدان يحسه، والطبع يألفه، والذوق يحكم به، والعقل يتقبله، وقد أيده النقل إذ جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [٣] أى طريقى الخير والشر.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [٤].

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [٥].

بيد أنه وإن كان قابلًا للخير والشر فهو إلى الخير أقرب كما قال ابن خلدون فى مقدمته:

---

(١) ترض بمعنى تروض.

(٢) انظر (الخلق الكامل) محمد أحمد جاد المولى – المطبعة التازية – بمصر.

(٣) سورة البلد الآية ٨ – ١٠.

(٤) سورة الشمس الآية ٧ – ١٠.

(٥) سورة الإنسان الآية ٣.

«إن الملك طبيعى للإنسان لما فيه من طبيعة الاجتماع ولأنه أقرب إلى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة لأن الشر إنما جاء من قبل الحيوانية التى هى فيه، وأما من حيث هو إنسان فهو إلى الخير وخلاله أقرب» .

ولقد تبع ابن خلدون فى هذا الرأى جمهور الحكماء العرب الذين يقولون: إن الإنسان جزء من العالم، والعالم فيه خير وشر فلو وازنت خيره بشره ومنافعه بمضاره لوجدت الخير أرجح والنافع أكثر، وهم فى ذلك يستدلون بالمشاهَد والواقع، ويؤيدون استدلالهم بما لاح فى قوله تعالى يخاطب الملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١) أى إنى أعلم أن هذا النوع الإنسانى يناسبه الحكمة لأن الخير فيه كثير(٢).

- ٤ -

وسائل تقويم الأخلاق

أهم الوسائل التى اتخذها الإسلام أو وجه إليها فى منهجه التربوى لاكتساب الأخلاق الإسلامية هى:

الوسيلة الأولى: الانغماس فى البيئة الصالحة.

الوسيلة الثانية: القدوة الحسنة.

الوسيلة الثالثة: التدريب العملى والرياضة النفسية.

الوسيلة الرابعة: الضغط الاجتماعى من قبل المجتمع المسلم.

الوسيلة الخامسة: سلطان الدولة الإسلامية.

وفيما يلى شرح موجز لهذه الوسائل:

١ - الانغماس فى البيئة الصالحة:

من وسائل اكتساب الأخلاق الفاضلة الانغماس فى البيئة الصالحة وذلك لأن من طبيعة الإنسان أن يكتسب من البيئة التى ينغمس فيها ويتعايش معها ما لديها من أخلاق وعادات وتقاليد وسلوكيات عن طريق المحاكاة والتقليد، فحينما ينخرط الفرد فى سلك جماعة من الجماعات يجد نفسه مدفوعًا نحوهم وملتزمًا طريقتهم.

(١) سورة البقرة الآية ٣٠.

(٢) بتصرف - الخلق الكامل - محمد أحمد جاد المولى.

وبمرور الوقت بينهم يستحسن الأشياء التى يراها مستحسنة لديهم ومتمسكين بها، ويستقبح الأشياء التى يراها مستقبحة لديهم ونافرين منها، وبذلك يكتسب الفرد دون أن يشعر أخلاق الجماعة التى ينتسب إليها وينخرط فيها ومن هنا كانت التوجيهات الإسلامية غاية فى الأهمية يقول الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ (١).

كما أننا إذا وضعنا جبانًا فى بيئة شجعان استطاع أن يكتسب منهم قسطًا حسنًا من الشجاعة، وبذلك تخف نسبة الجبن لديه، وإذا وضعنا بخيلًا بين كرماء مدة طويلة من الزمن فإنه لابد أن يتأثر بهم فتخف عنده نسبة البخل الفطرية لديه. وإذا وضعنا إنسانًا خائنا فى بيئة أمناء اكتسب منهم خلق الأمانة أو فى بيئة صادقة اكتسب منهم خلق الصدق، أو فى بيئة عفة وشرف اكتسب ذلك منهم.

وهكذا فالإنسان الذى يجد نفسه فى بيئة لهجتها الصدق، وخلقها الأمانة، وسلوكها الوفاء بالعهد والصدق فى الوعد، يصعب عليه جدًا أن يخرج عن هذه السلوكيات الفاضلة وإن كانت نفسه نزاعة بالأصل إلى غير ذلك. ثم إذا طال عليه العهد وهو ملتزم بما تمليه عليه البيئة وجد هذه الصفات الكريمة ذات جذور متغلغلة فى نفسه وصار يحس بنفرة شديدة من أضدادها.

هذا بخلاف البيئات المنحرفة فإنها تعمل على تدريب من ينخرط فيها على كل رذيلة من الرذائل التى هى مدنسة بها، وعلى كل قبيح من القبائح المنتشرة بين أفرادها ومن المتعذر جدا إصلاح إنسان منحرف الخلق فاسد السلوك، ما لم يعزل عزلاً كاملًا عن الأشرار، وما لم يقطع عن مصاحبتهم وفى الحديث الصحيح «لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقى» [رواه أبو داود].

لذلك كان من واجبات التربية النافعة التوجيه أو الإلزام بمصاحبة الأخيار والبعد عن مخالطة الأشرار.

٢ - القدوة الحسنة:

القدوة هى المعلم القدير بلا لسان، والمرشد الناصح من غير بيان، وهى مدرسة الإنسان العملية التى يرسخ تعليمها فى النفوس ويعلق بالأفهام، وقد عرف عن النفوس ميلها لشكلها وأنسها بجنسها.

قال بعض البلغاء: من شأن الأجناس أن تتواصل، من عادة الأشكال أن تتآلف، والشىء يتغلغل إلى معدنه.

---

(١) سورة هود الآية ١١٢ - ١١٤.

قدم ناس إلى مكة المشرفة فقالوا: قدمنا بلادكم فعرفنا خياركم من شراركم فى يومين قيل: كيف ذلك؟ قالوا: لحق خيارنا بخياركم وشرارنا بشراركم فألف كل شاكله.

وفى هذا قال بعض الشعراء:

تخير أخا فى الله تصحبه ساعة ... فكل أمرئ يصبو إلى من يجانس

ومن المشاهد فى مجال التربية أن كثيراً من الناس يرون بعض الأمور مستحيلة الوقوع لأنهم لم يعالجوا قدراتهم للقيام بها، فإذا شاهدوا غيرهم يفعلها أخذوا يطوعون قدراتهم حتى يُكسبوها المهارات المطلوبة لذلك العمل بالمعالجة والمحاكاة والتدريب. ومعلوم أن فى فطرة الإنسان ميلاً قويًا للمحاكاة والتقليد.

وقد اتخذ الإسلام القدوة الحسنة وسيلة من وسائله لترقية المجتمعات المسلمة فى سلم الكمال السلوكى عامة ومنه الكمال الخلقى، وأشار القرآن الكريم إلى القدوة الحسنة فقال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (١).

ففى هذا النص إرشاد عظيم من الله تبارك وتعالى للمؤمنين أن يجعلوا رسول الله ﷺ قدوة حسنة لهم يقتدون به فى أعماله وأقواله وأخلاقه، فهو خير قدوة يقتدى بها الأفراد والأمم لبلوغ الكمال الإنسانى فى السلوك الأخلاقى.

ولئن انتقل الرسول صلوات الله عليه إلى جوار ربه، فإن سيرته العطرة لا تزال ماثلة لنا، وفيما بلغنا من تراجم أصحابه – رضوان الله عليهم – ما يكفى لتجسيد القدوة الحسنة للمجتمع المسلم.

ثم إن كل عصر من العصور بعدهم لا يخلو من وجود طائفة من أمة محمد ﷺ تصلح لأن تكون قدوة حسنة – قلت هذه الطائفة أو كثرت. مصداق ذلك ما رواه مسلم أن النبى ﷺ قال: « لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين لا يضرهم من يخذلهم حتى يأتى أمر الله» .

٣ - التدريب العملى والرياضة النفسية:

من المعلوم أن فى النفس البشرية استعدادا فطريا لاكتساب مقدار ما من كل فضيلة خلقية، وبمقدار ما لدى الإنسان من هذا الاستعداد تكون مسئوليته، ولو لم يكن لدى النفوس الإنسانية هذا الاستعداد لكان من العبث اتخاذ أى محاولة لتقويم أخلاق الناس، والقواعد التربوية المستمدة من الواقع التجريبى تثبت وجود هذا الاستعداد، واعتمادا عليه يعمل المربون على تهذيب أخلاق الأجيال التى يشرفون على تربيتها، وقد ورد فى الأثر «العلم بالتعلم والحلم بالتحلم» .

(١) سورة الأحزاب الآية ٢١.

روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى أن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده:

«ما يكن عندى من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله. وما أعطى أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر» .

وضرب الرسول ﷺ مثلًا دل فيه على أن التدريب العملى ولو مع التكلف يكسب العادة الخلقية حتى يصير الإنسان معطاء غير بخيل ولو لم يكن كذلك أول الأمر.

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنفق: كمثل رجلين عليهما جُنتَانِ من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت -أو وفرت - على جلده حتى تخفى بنانه، وتعفو أثره، واما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع» .

جنتان من حديد: أى درعان، ومعناه أن المنفق كلما أنفق سبغت أى اتسعت وطالت حتى تجر وراءه، وتخفى رجلاه وأثر مشيه وخطواته.

دل الحديث على أن المنفق والبخيل كانا فى أول الأمر متساويين فى مقدار الدرعين، أما المنفق فقد امتدت درعه بالإنفاق حتى غطت جسمه كله بخلاف البخيل الذى لم يدرب نفسه على الإنفاق فإن نفسه تشح حتى أصبح البخل متمكنا من نفسه مسيطرا عليها.

واعتمادا على وجود الاستعداد الفطرى لاكتساب الخلق وتهذيبه وردت الأوامر الدينية بفضائل الأخلاق، ووردت النواهى الدينية عن رذائل الأخلاق.

ولكن من الملاحظ أنه قد يبدو التخلق بخلق ما عملاً شاقًا على النفس إذا لم يكن فى أصل طبيعتها الفطرية، ولكنه بتدريب النفس عليه وبالمران يصبح سجية ثابتة وخلقًا كريما يدفع صاحبه إلى فعل الخير والبعد عن الشر.

ولنأخذ مثلًا على ذلك فضيلة الصبر: فإنه من المستطاع اكتساب هذه الفضيلة وتنميتها عن طريق التدريب ومجاهدة النفس، وذلك بأن تمر عليه فى حياته أمور تتطلب منه صبرا أو سعة صدر، فقد يضجر الإنسان فى بادئ الأمر ولكنه فى المرة الثانية يكون ضجره أخف، وهكذا حتى تقل عنده نسبة الضجر. وتتصاعد نسبة الصبر حتى يصير من الصابرين ومن أصحاب فضيلة خلق الصبر. وكذلك كثير من الفضائل الخلقية يمكن اكتسابها بالتدريب العملى المتكرر.

٤ - الضغط الاجتماعى من قبل المجتمع المسلم:

ضمن مجموعة الوسائل التى اعتمد عليها الإسلام فى تقويم الأفراد وإصلاحهم اعتمد على المجتمع الاسلامى السوى، وذلك لما فى المجتمع من سلطة معنوية فعالة ومؤثرة فى نفوس

الأفراد والجماعات فمن شـأن هذا المجتمع المسـلم أن يملى على من ينشـأ فيه فضائل الأخلاق ومحاسـن السلوك بصفة عملية فعالة ومنتظمة. وقد ملأ الإسلام المجتمع الإسلامى بالمناسبات المتكررة التى يجتمع فيها المسلمون على سلوك واحد قويم، الأمر الذى من شأنه أن تعم الأخلاق الكريمة جميع أفراد المجتمع المسلم، فضلًا عن التنافس فى الخيرات والبعد عن الموبقات.

وترجع هذه السـلطة المعنوية – التى اعتمد عليها الإسـلام فى تقويم الأخلاق إلى أن الفرد جزء من المجتمع الذى يعيش فيه، وله مع مجتمعه مصالح كثيرة ومنافع متبادلة سواء كانت مادية أم معنوية.

وقد حرص الإسـلام على أن يكون المجتمع الإسـلامى رقيبًا على أفراده وحارسًا ساهرًا، ومحاسبًا عادلًا، ومعاقبًا بأنواع شتى من أنواع العقاب المعنوى، ومؤنبًا وناصحًا وآمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر، وذلك لئلا يشذ الأفراد فى المجتمع عن المنهج الإسلامى القويم.

ومـن النصوص الدالة على ذلك ما رواه البخارى عن النعمان بن بشـير عن النبى ﷺ قال: «مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم اسـتهموا على سـفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسـفلها وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا» .

وقـد أوضح الرسـول عليه الصلاة والسـلام كيف تربى الجماعة الأفـراد المخالفين بعقاب الهجر والمقاطعة لله فى قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الرسول ﷺ فى غزوة تبوك دون عذر.

وقد جاءت قصة هـؤلاء الثلاثة مفصلة فى الأحاديث الصحيحة وجاءت مجملة فى القرآن الكريـم فى قولـه تعـالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُواْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (١).

٥ - سلطان الدولة الإسلامية:

وللسلطة المادية التى تمارسها الدولة الإسلامية أثر فعال فى إلزام الأفراد والجماعات بالمنهج الأخلاقى الذى رسمه الإسلام للناس فى تربية نفوسهم على الفضائل الأخلاقية النبيلة.

ولذلـك كان من مهمات الدولة الإسـلامية وضـع الأنظمة المختلفة المرغبـة بالتزام المنهج الأخلاقـى الربانى، والرادعة عن مخالفتـه، واتخاذ مختلف الوسـائل النافعة التوجيهية

(١) سورة التوبة الآية ١١٨.

والتربوية لحماية الأخلاق وصيانتها. وذلك مثل إقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتعزير المخالفين.

وربما كان وازع السلطة الإدارية هذا أقوى وازع لإلزام الجماهير بسلوك السبيل الأقوم وقد جاء فى الأثر: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

أى: إن من الناس من لا يلتزمون بمنهج الحق لمجرد علمهم بأنه منهج حق، بل لابد لهم من سلطان مادى يخافون بأسه ويرجون نفعه، وهو يلزمهم به طوعًا أو كرهًا وحينما تكون رقابة السلطة الإدارية رقابة يقظة، ووسائلها مجدية ونافعة، فإن شذوذ الأفراد والجماعات يقل إلى أدنى النسب الممكنة فى الواقع الإنسانى.

ومن الشواهد على هذه الحقيقة عصر الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ﷺ فإنه كان عصر إدارة حازمة، ورقابة يقظة، لذلك لم يسجل تاريخ هذا العهد من شذوذ الأفراد والجماعات إلا القليل النادر، الذى لا يخلو منه أى مجتمع إنسانى مهما كان مجتمعًا مثاليًا.

وعهد الخليفة الأول أبو بكر الصديق ﷺ كذلك إلا إنه لم يطل كما طال عهد الخليفة الثانى.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ فى كلا العهدين عناصر مساعدة للخليفة يؤازرونه ويؤيدونه ويمدونه بقوة الحزم والعزم ويرشدونه إلى جوانب الحكمة والصواب[1]، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[2]

***

(١) انظر عبد الرحمن حسن حنبكة الميدانى، الأخلاق الإسلامية وأسسها ج١، ص ٢٠٧ – ٢٢١.

(٢) سورة الفتح الآية ٢٩.